ملاحظات على كتاب (فى الشعر الجاهلى)

— ١ —

أرى أن أحسن طريقة لمن يرى أن طه حسين وأمثاله يخرجون عن جادة الحق ويخطئون فيما يقررون أو يستنتجون ، أن يفندوا آراءهم باسلوب نزيه تمحيصي وأن يدحضوا حججهم بمثلها . فبهذه الطريقة فقط يجعلون الناس يحكمون على مايكون في أقوال هؤلاء وكتاباتهم من ضعف ووهن ، ويخدمون الحقيقة التى ينتصرون لها ويدافعون عنها

بهذه الروح قرأت كتاب الدكتور طه حسين (في الشعر الجاهلي) ودوّنت ملاحظاتي عليه . ومع أنى أعترف بما في أسلوب الدكتور من قوة وفى بعض أبحاثه من منطق وصدق نظر وتعليل فاني لا أرى بدًّا من القول بأنه في بعض أبحاثه يحاول أن يستهوي القاريء استهواءً أكثر من أن يقنعه اقناعاً فيسوق نظريته ويوهمك أنها قضية مُسلّمة بدون أن يدعمها بشاهد وبرهان ، عند ما تكون في أشد الحاجة الى الشاهد والبرهان . وقد يبدي نظرية ثانية يبنيها على نظريته الاولى ، ويسوق الثانية كأنها قائمة على نظرية سابقة ثابتة مسلم بهـا ! وله عادة تظهر فى بعض أبحاثه وهي تناوله رأي خصمه أو نظريته ـ حديثةً أو قديمة ، متعارفةأو ضعيفة ـ باسلوب المتنقص المتهكم الزاري ، ويحاول هدمها به . مع أنها قد لا تكون من الضعف بحيث تنهدم بهذا الاسلوب ، وقد يكون فيهـا من الشاهد والبرهان مالا يمكن التغلب عليه الا بما هو أقوى من الشاهد والبرهان . وفي اعتقادي أن هذه ناحية ضعيفة في الدكتور قد يصيب منه من ينفذ اليه منها

— ٢ —

ليس في الكتاب شيء جديد الا الدعوى بان العرب كانوا مختلفي اللغات بدون تحديد زمن ، وبان الشعر الجاهلي غير صحيح النسبة على اطلاقه لأنه جاء بلغة واحدة وعلى نمط واحد ، مع أن الشعراء مختلفو الشعوب والقبائل والموطن فيلزم أن يكونوا مختلفين بلغاتهم ولهجاتهم ، وبالتبعية يلزم أن يكون شعرهم مختلفاً في لغته ونمطه . والذي أراه أن هذه الدعوى التي هي الشيء الجديد في الكتاب غير مبرهنة ، وهي من أضعف النقاط فيه . والا فان القول بانتحال الشعر والتشكيك في شخصية بعض الشعراء وتناقض الراوة حولهم واختلافهم في ما نقلوه عنهم من أشعار وقصص وما ترجموهم به من تراجم وما قاله عن قصة اسماعيل وابراهيم والكعبة الى غير ذلك كلها أقوال مسبوق اليها اما قديماً أو حديثا

— ٣ —

عقد في كتابه باباً باسم (مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس من القرآن لا من الشعر الجاهلي) قال فيه ان الحياة الجاهلية تدرس في القرآن وفي الشعر الاسلامي والأموي أكثر من الشعر الجاهلي ، وعلل ذلك بأن نص القرآن ثابت بعكس الشعر الجاهلي فانه غير ثابت . ويقول : ان الادباء يعتقدون أن العرب كانوا قبل الاسلام امة معتزلة تعيش في صحرائها لا تعرف العالم الخارجي ولا يعرفها العالم الخارجي ، وأن هذه العقيدة جعلتهم يبنون قضايا ونظريات ، فيقولون مثلا ان الشعر الجاهلي لم يتأثر بهذه المؤثرات الخارجية التي أثرت في الشعر الاسلامي ، ولم يتأثر كذلك بحضارة الفرس والروم وغيرها ، مع أن القرآن أنبأنا بعكس ذلك اذ يصور للعرب حياة دينية وعقلية بما كانوا عليه من قوة الجدل واعنات النبي صلى الله عليه وسلم بالمسائل وادراكهم كثيراً من دقائق الابحاث الفلسفية اللاهوتية وبما كانوا عليه من صلات واسعة بالامم الاخرى

والذي أراه أن المؤلف يلقي الكلام في هذا الباب القاءً لا يؤيده شاهد ولا واقع . ففي الشعر الجاهلي المنسوب الى شعراء الجاهلية أشياء كثيرة جداً تدل على أن العرب عرفوا العالم الخارجي وتأثر كلامهم به ، وفيه أشياء كثيرة جداً تصور حياة العرب الدينية والعقلية والاجتماعية أيضا . واذا كانت عقيدة الادباء تستند الى ما هو مروي من الشعر الجاهلي فكيف يعقل أن يعتقدوا ويقولوا بغير ماهو موجود في هذا الشعر ؟ واذا صح عن بعضهم قول مثل هذا فلماذا لا يشير المؤلف اليه ، وكيف جوَّز لنفسه التعميم وبنى عليه رأياً عظيم الخطر ؟ وهل من المعقول أن يبنى الادباء عقيدتهم على غير الشعر الجاهلي ؟ وهذا الشعر بين أيدي الناس جميعاً يحفظونه وينشدونه ويتذوّقونه ويبنون عليه تاريخاً للعرب الجاهليين في صلاتهم مع الروم والفرس أولا ، وفي حروبهم وعاداتهم وأديانهم وعواطفهم وحبهم وفخرهم وأنكحتهم ومآتمهم وأعراسهم ثانيا

ومن غريب الاتفاق أني وأنا أكتب هذا الفصل كنت أدقق في رسالة صغيرة مدرسية موضوعة منذ عشرة أعوام يقول مؤلفها في بحثه عن اللغة في العصر الجاهلي ان العرب استفادوا من الاختلاط بجيرانهم كثيراً من الافكار والعادات والألفاظ الخ . فاذا كان الادباء يقولون هذا في رسائل صغيرة مدرسية فهل يقال بعد ذلك انهم يعتقدون بعزلة العرب وانقطاعهم عن العالم الخارجي ؟

ولو أن المؤلف سارع هنا الى انكار الشعر الجاهلي كما انتهى به البحث أخيراً لكفى نفسه مؤونة الوقوف في موقف مخالف للواقع وللمرويّ من شعر العرب الجاهلي

— ٤ —

وعقد المؤلف فصلا بعنوان (الشعر الجاهلي واللغة) قال فيه : ان هذا الشعر لا يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه . ويقول في تفصيل

ذلك : إن الرواة متفقون على أن اللغة العدنانية غير اللغة القحطانية . ويستشهد بكلمة أبي عمرو بن العلاء وهي « ما لغة حِمْيَر بلغتنا » . وقال انه قد وجدت نقوش ونصوص تثبت هذه المغايرة اثباتاً قاطعاً ، وان الصلة بين العدنانية والقحطانية كالصلة بين العربية وإحدى اللغات السامية . ثم قال مستغرباً : انه مع وجود شعراء جاهليين قحطانيين فان لغتهم لا تفرق عن لغة العدنانيين بل انها لا تفرق عن لغة القرآن في شيء ، وان هذا محال أن يكون لو كان هذا الشعر القحطاني هو شعر قحطاني حقاً قد قيل قبل الاسلام

والذي نعرفه من تعبيرات الرواة أنهم كانوا يستعملون غيرية اللغة في كلمة بل في حرف ، بل في طريقة من طرق الاعراب ، بل في شذوذ عن قاعدة من قواعد النطق ؛ فكلمة أبي عمرو التي صدقها المؤلف دون سائر ما رواه من الشعر الجاهلي لا تستقيم لتكون حجة على هذه المغايرة . وقد كان على المؤلف أن يأتينا بأمثلة من هذه النصوص والنقوش التي تثبت المغايرة الواسعة بين العدنانية والقحطانية في اللفظ والقواعد والتصريف كما يقول ، وكان عليه كذلك أن يبين أقرب تاريخ امتدت اليه هذه المغايرة ؛ لان المعروف أن شعراء الجاهلية الذين يروي الرواة أشعارهم ويصدّق الادباء بجاهليتهم لا يرتفعون – كما يؤرخ هؤلاء – الى أكثر من قرنين أو ثلاثة قرون بالاكثر عن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولان المعروف أيضاً أن حج الكعبة كان عادة عربية جاهلية ترتقي الى أكثر من قرنين وثلاثة قرون وأن مشركي العرب كانوا يحجون الكعبة ، وقد قال هو بذلك دون أن يستثني القحطانيين . وأن العرب القحطانيين والعدنانيين كانوا في غدو ورواح مستمر الى العراق ونجد والشام والحجاز واليمن وانهم كانت تقع بينهم المبادلات التجارية والحروب والخلافات التي كان لها الأثر في نحل الشعر الجاهلي بعد الاسلام على رأي المؤلف ؛ فليس معقولا بعد هذا الاختلاط وبعد

هذا الغدو والرواح وبعد تلك الحروب والحادثات أن لا تكون بينهم لحمة لغوية يتفاهمون بها ، وان تكون الصلة بين القحطانية والعدنانية كالصلة بين العربية ولغة سامية اخرى على اطلاق القول وبدون تعيين زمن . والا فكيف بادت اللغة القحطانية بظهور الاسلام أو اندمجت في اللغة القرشية اندماجاً تاما ؟ وكيف انتشر القرآن وفهمه القحطانيون ؟ وكيف تسنى لهؤلاء أن يلتئموا مع العدنانيين دفعة واحدة ويحاربوا ويستعمروا معاً ولم يكن مضى على موت النبي عليه السلام أربعة أعوام ثم أن يتنابزوا بالألقاب والأيام الجاهلية وتودّي ذكرياتهم القديمة المتمارفة الى تلك الحروب والاحن الأغلية بعد الاسلام ؟

ولو أن المؤلف قال بالتغاير فى اللهجات أوقال ان هاتين اللغتين كانتا متغايرتين قبل البعثة بعشرين قرناً على عهد مأرب وسبأ مثلا لكان في الاول أوجه ، ولكان في الثاني أبعد الريبة عن نظريته أو على الاقل منع الطلب بالشاهد لاسيا والمعروف أن العدنانيين بنو اسماعيل وان اسماعيل عبراني فلا يبعد أن تكون القبائل العدنانية في بدء اسماعيليتها كانت متغايرة اللغة مع القحطانيين غير أن هذا التغاير زال برسوخ العدنانيين فى الجزيرة وكثرة اختلاطهم التجاري والحربي والديني مع سائر العرب . وهؤلاء اليهود الذين نزلوا يثرب ليس من شك فى أنهم حينما جاءوا من فلسطين كانوا عبرانيي اللغة فلم يلبثوا حتى أخذوا يستعربون ، وحتى أخذ ينبغ منهم الشعراء والخطباء الذين عرفت أسماؤهم في سياق تاريخ البعثة ، وكانت لغتهم عربية جاهلية فصحى

ووجه آخر يضعف هذا القول وهو لغة الاوس والخزرج . فمع أن الرواة مجمعون على قحطانيتهم لم يكن تغايرٌ بين لغتهم ولغة مكة في قليل ولا كثير فلو فرضنا ان بُعد اليمن عن مكة حال دون ترك القحطانيين اثراً لغوياً فى لغة الحجاز وحال دون الوقوف على شواهده ، فهذا الفرض لا يرد على لغة الاوس

والخزرج وهؤلاء شعراؤهم لا يفترقون فى لغتهم عن سائر شعراء العرب . فلو كان التغاير بين القحطانية و العدنانية كالتغاير بين العربية والكلدانيـة مثلا افلا ينبغي ان تكون بقية من جرائيم لغتهم حية ظاهرة وهلا ينبغي ان تؤثر على لغة القرآن مثلا وعلى رأى المؤلف فى هـذا الاسلوب ، وقد نزل أ كثره بين ظهرانيهم في المدينة ؟

وذكر المؤلف أن اليهود هم الذين لفقوا نسبة الكعبة الى ابراهيم واسماعيل وقرابة اليهود بالعرب ، ويقول ان هـذه الاسطورة أخذت تنتشر فى القرن السابع . والمؤلف هنا غير مقنع أيضاً لانه لا يعقل أن تنتشر اسطورة مثل هذه الاسطورة وترسخ فى أذهان العرب فى برهة وجيزة جداً ، وقد وقعت البعثة فى أوائل القرن السابع ، كما أن علاقة اليهود بالحجاز ترجع الى أبعد من القرن السابع حتما ، اذ أن استعراب مهاجري الاسرائيليين لا يمكن أن يرسخ هذا الرسوخ في مثل هذه المدة الوجيزة . على أنه اذا كانت نسبة العبرانية أو الاسماعيليـة الى العدنانيين تلفيقيـة فالى أي أصل يرجع هؤلاء ياترى ؟ فاذا كانوا من غير أصل عبراني فلسطيني أوعراقي مثلا فهل هم من أصل يماني ؟ واذا كانوا من أصل يماني فهل تثبت دعوى تغاير اللغتين الى مثل تغاير العربية مع الكلدانية مع استمرار الاختلاط ووحدة الاقليم ؟

— ٥ —

وعقد المؤلف فصـلا آخر بعنوان (الشعر الجاهلي واللهجات) قال في جملة ما قاله ان العرب العدنانية كما قدمنا كانوا متقاطعين متنابذين ، وأنه لم يكن بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يمكّن من توحيد اللغات ، مع أنه ليس في الشعر الجاهلي ما يشير الى أي أثر من اختلاف اللهجات ، بل هو ذو لغة واحدة سهلة لينة قرشية بل هو لغة قرآنية ، وهو ذو نمط واحد وبحور واحدة مما

يحمل على القطع بأن هذا الشعر المروي انما قيل بعد أن سادت لغة قريش : مع انها لم تسد الا بعد الاسلام وانتشار القرآن ، واذا كانت سادت فانما تكون سيادتها قبل الاسلام بامد قصير وفي دائرة ضيقة لم تتعد بعض أنحاء الحجاز

والمؤلف في هذا الفصل أيضاً يرسل الكلام إرسالا بدون اثبات ولا حجة قاطعة . فمع أنه قال انه قدم أن العدنانيين كانوا متقاطعين متنابذين فان مثل هذا القول لم يسبق ، ومع أنه يقول هنا انه لم تكن توجد أسباب مادية ومعنوية تسبب الاختلاط وتوحد اللهجات فانه قال في مكان آخر ان العرب كانوا يحجون الكعبة ولم يحصر هؤلاء العرب في اقليم دون اقليم أو في قبيل دون قبيل ؛ وقال ان قريشاً كانت لهم أسفار تجارية شمالية وجنوبية وكانوا على اتصال بغيرهم مما يمكن استخراجه من القرآن . فهلا يكون هنا تناقض في القول وضعف في التدليل ؟ على أنه لا يعقل من جهة أخرى أن لا يكون للغة قريش إلا سيادة جزئية وضيقة وأن لا ترتقي هذه السيادة إلا الى أمد قصير قبل الاسلام ثم يأتي الاسلام فلا يلبث في مدة قصيرة جداً أي في مدة عشرة أعوام أن يحقق سيادة اللغة القرشية في جميع أنحاء الجزيرة وأطراف الشام والعراق العربي على ما بينها من مسافات شاسعة ومع أن الجزيرة ظلت على حالتها البدوية في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وبعده أيضاً . فكيف تسنى لشعراء العرب عامة ولشعراء القبائل العدنانية خاصة ولخطبائها أيضاً أن يقولوا الشعر ويرتجلوا الخطب في العهد النبوي ويتفاهموا لو لم تكن هناك وحدة لغوية أدبية هي على الاقل أبعد من « قُبيل الاسلام » بامد قصير ؟ وكيف تسنى لسائر العدنانيين أن يقرأوا القرآن ويفهموه حالا لو لم تكن هذه الوحدة راسخة نوعاً ما ؟

وقد سأل المؤلف نفسه عن اتفاق لغة الشعراء وسائر أنواع الكلام في الزمن النبوي وأقر بامكان تغاير اللهجات مع وجود لغة أدبية يتفاهم بها أرباب هذه اللهجات المتباينة . ولكن الفرق بيننا وبينه أنه يقول بسيادة جزئية محصورة وقصيرة الامد

لا نرى من المعقول أن تكفي مثل هذه السيادة الجزئية المحصورة والقصيرة الامد لجعل شعراء المدنانية يقولون الشعر بلغة واحدة قرشية في عهد الاسلام الاول كما اننا نرى في ذلك تناقضاً ، ومن جهة ثانية فاننا لا نرى من المحال أن يتفق الشعراء مع اختلاف لهجاتهم التخاطبية العادية في لغة الشعر الجاهلي الذي روى والذي لا يرتقي كما أسلفنا الى أكثر من ثلاثة قرون ثم الى قرنين ثم الى قرن ثم الى نصف قرن من البعثة . وفي التاريخ وفي الحاضر ما يساعد على هذا القول ، فانه لم يرو أن اختلاف اللهجات الاقليمية في أنحاء الجزيرة أو في أنحاء البلاد التي تتكلم بالعربية بعد الاسلام أدى الى انعدام لغة يتفاهم بها جميع سكان هذه الانحاء ، كما أن قبائل البدو الرحالة في بادية الشام والعراق ونجد والحجاز لا تزال قادرة على التفاهم ولا تزال تقول من الشعر البدوي ما يتناقله رواتهم ويفهمه سائرهم . واذا قلنا ان في البلاد المتحضرة من وسائل التعليم ما يحفظ وحدة اللغة التي يتفاهم بها أهلها ، فان هذه الوسائل معدومة بالمرة في البادية ولم يساعد على وجود هذه الوحدة الا ما هو موجود من غدو ورواح واتصال فيما بينهم مما لم ينقطع بتاتاً ومما هو جزء من طبيعة البادية قديماً وحديثاً . وقد شعر المؤلف ـ بدون ريب ـ بتكلفه القول فتخلص هنا من موقفه تخلصاً واعترف بأن الموضوع في حاجة الى توسيع وبحث ، فنحن ننتظر هذا التوسيع والبحث لنرى ما فيه من قوة حجة وشاهد

— ٦ —

وقد بحث المؤلف بحثاً طويلا في انتحال الشعر ورواته وذكر تأثير السياسة والقصص والدين والشعوبية في انتحال الشعر العربي واستعرض الرواة وأخلاقهم واعترافاتهم باختلاق الشعر ونحله . والحق أن بحث المؤلف هذا قوي وشواهده قائمة لا يسع القارىء الا التسليم بها . غير أن كل ذلك لا يبرر له النهاية التي انتهى اليها من كيل الافكار جزافاً لما روى من الشعر الجاهلي : بحيث يريد أن يجعل

القاريء يعتقد أن جميع ماورد من هذا الشعر الموحد بلغته وبحوره ونمطه موضوع والظاهر أنه هو أيضاً يشعر بعدم امكان (بلم) هذا التعميم في الكذب والوضع إذ أنه رجع في محل آخر فتحفظ وقال بكذب ووضع غالبية الشعر الجاهلي المعروف ، فجمل القاريء يرجع فيظن أن المؤلف يعتقد بصحة أقلية من الشعر الجاهلي وينتظر ليرى نماذج يعطيها المؤلف على مائبت لديه منه فلا يرى شيئاً . أو لم يكن من الواجب دعماً للحجة وتسويغاً للقول أن يورد المؤلف هذه النماذج من الشعر الجاهلي قحطانيه وعدنانيه لتكون ميزاناً يزن به قاريء كتابه الصحيح والمنحول من الشعر الجاهلي ؟

وقد تحكم المؤلف أيضا حينما استعرض بعض الابيات لبعض شعراء الجاهلية وعرض لتراجمهم المروية ورجح أو قطع بكذبها وانتحالها . فان ما استعرضه قليل جداً بالنسبة لما هو مروي لهؤلاء الشعراء فكيف جوز لنفسه أن يمثل بالبيت أو الأبيات ثم يحكم بأن ما ورد لهذا الشاعر من الوف الأبيات في شتى الشؤون هو مكذوب ومنحول كهذه الابيات القليلة ؟ وهل غموض حياة شاعر ، أو احاطتها بقصص مبالغ بها ، كاف ياترى لانكار وجود هذا الشاعر ؟

هذا وليسمح لنا المؤلف أن نقول ان في وضع الشعر ونحله للجاهليين نقضا لابحاثه الاولى من وجوب الوقوع على اختلاف في اللغات واللهجات والنمط والبحور في الشعر الجاهلي ، ودلالة قوية على أن الشعر الجاهلي قحطانيه وعدنانيه لا يخرج في لغته وفي بحوره عن القسم المنحول منه . والا فكيف يمكن أن يأتي قاصّ أو راو أو شعوبي أو يهودي أو مسلم أو غير مسلم فيقول قال فلان الشاعر الجاهلي هذه الأبيات وتمشي روايته ما لم يكن قد عرف الناس شيئاً كثيراً من الشعر الجاهلي وأغراضه ومناحيه وتناقلته الرواة وفقهه النقاد ، وما لم يكن هؤلاء

قد عرفوا وثبت لديهم كثير من أسماء الشعراء الجاهليين ومكانتهم في الشعر ، وما لم يكن الشعر المنحول منسوجاً على منوال وبحور ولغة الشعر الجاهلي الذي عرفه الناس في ذلك العهد ? ولا يعقل أن يكون قد وصل أهل ذلك العهد – عهد لغة القرآن الباهرة – من الضعف العقلي والأدبي الى درجة تجعل الرواة والمنتحلين يسرحون ويمرحون ويكذبون وينحلون الشعر فتقبل رواياتهم وأكاذيبهم مع أنها على غير مثال معروف وطريق مسلوك لغة وفناً ، الا اذا عقل ان ما عدا الشعر المنسوج على لغة قريش والمخالف لهذه اللغة ونمط شعرها على رأي المؤلف قد باد دفعة واحدة وطُمس على عيون الناس وقلوبهم فنسوا صفاته ومبايناته اللغوية والفنية فلما انتحل المنتحلون الشعر ونسبوه الى شعراء جاهليين من غير قريش – قحطانيين وعدنانيين – صدقه الناس مع انه غير صادق في لغته وبحوره ونمطه ومع أنه كان بين هؤلاء الشعراء من التغاير ما بين العربي وغير العربي مثلا ! ! ولست اريد لأحد أن يعقل هذا ويعتقد به ?

نابلس عزة دروزه

معاهدة الفرزدق ربه

وقف الفرزدقُ – وهو شيخ – في ظلّ الكعبة فتعلّق بأستارها ، وعاهد الله أن لا يكذبَ ولا يشتم . ومن شعره في ذلك :

ألم ترني عاهدتُ ربي وإنني لبَينَ رتاجٍ – قائماً – ومقامِ
على حلفةٍ لا أشتم الدهرَ مسلماً ولا خارجاً من فيَّ زُورُ كلامِ
رجعتُ إلى ربي وأيقنتُ أنني ملاقٍ لأيامِ المنون حِمامي